مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 24، ماي 2020، ص - ص 543-568
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

رحلة الحج المتخيّلة في رواية مالك بن نبي: "لبيك حج الفقراء"

The imaginary pilgrimage in Malek Bennabi's novel " Lebbeik: Pilgrimage of the Poor"

د/ ليندة خراب
كلية الآداب واللغات - جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة1
kharablynda@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/24 تاريخ القبول: 2020/04/13

الملخص:
أقامت رواية مالك بن نبي "لبيك حج الفقراء" حكاية البطل على موضوع الرحلة إلى الحجّ، واستثمرت عمود الرحلة السردي، لتحوّله لاحقا إلى استعارة كبرى تنضح بالمعنى وتضمر رؤية إلى العالم وتناقش قضايا مجتمعية وحضارية .كما نعثر في هذه الرواية على جملة من التقاطعات الممكنة بين السيرة المتخيّلة لبطل الرواية وسيرة المؤلف الذهنية؛ فممّا عرف عن مالك بن نبي-المؤلف- أنّه موسوعي الثقافة، جمع بين الفلسفة و السياسة والأدب و علم الاقتصاد والاجتماع، فكان أن تداخلت هذه المعارف جميعا واندغمت لتشكيل أسلوب في الكتابة السردية، يمكن التعرّف عليه بسهولة في رواية "لبيك حج الفقراء"؛ لقد اغتنت سيرة البطل بالمخزون الفكري المستمد من سيرة المؤلف،وتمخض ذلك عن وضعيات وعلامات نصية ، ومع ذلك ظلت المسافة الجمالية بين السيرة المتخيّلة والسيرة الذهنية للمؤلف قائمة، وهو ما حال دون سقوط الرواية في التقريرية والمطابقة التامة مع وقائع سيرة المؤلف الذهنية.

الكلمات المفتاحية: رحلة الحج المتخيّلة؛ العتبات النصيّة؛ البنيات الحكائية؛ تأويل رحلة الحج؛ سيرة البطل؛ سيرة المؤلف.

Abstract:

Malek Bennabi' s novel, " Lebbeik: the Pilgrimage of the Poor", tells the story of the hero about the journey to the pilgrimage, as he used the narrative pillar of the journey to make it a great metaphor that exudes the meaning, hosts a vision of the world and addresses issues of society and civilization. In this novel, we also find a number of possible intersections between the imaginary biography of the protagonist and the intellectual biography of the author. What do we know about Malek Bennabi - the author - this encyclopedia of culture, which combines philosophy, politics, literature, economics and sociology. All this knowledge has been superimposed and merged to form a style in narrative writing, which can be easily identified in the novel " Lebbeik: Pilgrimage of the Poor". The biography of the hero was enriched by the intellectual inventory derived from the biography of the author, which resulted in positions and textual signs. However, the aesthetic distance remained between the imaginary biography and the intellectual biography of the author, which prevented the novel from falling into the report and exact conformity with the facts of the author's intellectual biography.

Key words: the imaginary pilgrimage; the intention to go out, travel and return; the biography of the hero; the biography of the author.

مقدّمة:

لطالما كانت الرحلة نصا جامعا، يضم عديد الأنواع السردية الأخرى؛ مثل التراجم والأخبار والسير والرسائل والمقامات والتاريخ والجغرافيا والقصّ، وفي العصر الحديث، اندمجت الرحلة مع أشكال جديدة للكتابة الأدبية، وعلى رأسها الرواية والمذكرات واليوميات والسيرة الذاتية، وقد عمدنا إلى استكشاف مفهوم

الرحلة ومتابعة تطورها ، في ظل علاقتها ببقية الأنواع السردية الأخرى، غير أنّ ما يعنينا في المقام الأول، هو محاولة التعرّف على مختلف أوجه التفاعل بين الرحلة والرواية، ومعاينة شروط هذا التفاعل وبنياته وأبعاده الجمالية، في ضوء المقاربة البنيوية، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على رواية "لبيك حج الفقراء" لمالك بن نبي، وهي رواية تقوم على عمود الرحلة، متخذة من قصّة رحلة الحجّ، قناعا سرديا لتليغ حكاية البطل وسرد سيرته المتخيّلة ،وبذلك يكف النّص الرحلي عن أن يكون وصفا جغرافيا صرفا، حين ينتقل إلى منطقة التخييل فيغدو حبكة سردية تمتد من العتبات فالبنيات الحكائية، وسنعمد في الأخير إلى تأويل استعارة الرحلة إلى الحجّ، مستكشفين ما أضمرته من رؤى وأفكار، لا تقطع صلتها بالمرجعيات الفكرية والحضارية التي يدين بها المؤلف نفسه.

أولا: رحلات الحج الأدبية

مدخل عام

انبثق التفكير في الرحلة من زاويا متباينة؛ فقد يُقصر مفهوم الرحلة على الحقل الأنثروبولوجي والجغرافي ،لأنّ الرحلة مبنية على موضوع السفر، التي هي في الأصل انتقال في المكان، لذلك تعكس الرحلة بهذا المعنى تاريخ العمران و الحضارات وجغرافية المدن ،غير أنّ الرحلة قد تكشف أيضا عن مجموع التمثلات الحضارية التي يصطنعها الأنا عن الآخر الأجنبي، فكلّ رحلة تتضمن بالضرورة مفهوم الغيرية وهي ترصد أوجها من الجدل الحضاري القائم بين الهويات المتقابلة، فتكون الرحلة بهذا المعنى، أولج في باب الدراسات المقارنة.

الرحلة في عموم معناها، هي من الأشكال الأولى الحاضنة لمختلف الآداب و العلوم، بل هي سِفر ضخم يضم: جميع نواحي الحياة أو يكاد،إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافيا وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرَّة لمختلف العلوم،وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصر»[1].

يستعصي إذن تحديد مفهوم نهائي للرحلة، لأنّ الرحلة كما أسلفنا ،أقرب لأن تكون تخصّصا بينيا، تتكامل فيه العلوم والآداب وتتساند، وقد تردّد هذا المعنى البيني للرحلة في بعض القواميس الغربية: وفي ألمانيا، فإنّ الجغرافيا والرحلة يشكّلان معا، فرعًا مهمًا جدًا في كلّ من العلوم والأدب».

(La géographie et les voyages sont, en Allemagne, une branche très-importante à la fois de science et de littérature) [2].

تقوم بين الأدب و الرحلة إذن آصرة قوية، فلطالما تردّدت عبارة "أدب الرحلة"، وحُملت على الأدب،وفي هذه الحالة تلتبس الرحلة بأنواع سردية تراثية ومثلها الرسائل والتراجم والسير والقصص والأخبار، ومنها كذلك الروايات الحديثة والسير الذاتية والمذكرات واليوميات، وممّا جاء في تعريف أدب الرِّحْلات أنّه: «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل حياته،مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد»[3].

يضعنا التعريف السابق وجها لوجه مع إشكالية تعريف أدب الرحلة، فهو من جهة لم يستوف كلّ الأنواع التي تندرج ضمن مفهوم أدب الرحلة، بخاصة تلك التي لا تَصدر عن مفهوم واقعي للرحلة، فكم من الرحلات الأدبية لم يطف أصحابُها في البلاد والأقطار، لكنّهم أنجزوا نصوصا أدبية رحلية مدارها على رحلات خيالية صرفة، لكنّها مع ذلك نصوصٌ مستوفية لشروط أدبية الرحلة، مع عكس صحيح أيضا، فما أكثرها الآثار التي أُحصيت ضمن أدب الرحلة وما هي من أدب الرحلة في شيء ،سوى أنّ مؤلفها يسرد ما جرى له من اتفاقات وحادثات خلال سفره، إلا أنّ ما كتبه أقرب إلى السرد التاريخي أو الوصف العمراني والجغرافي أو السرد الأسطوري منه إلى الأدب ،إنّ شرط الأدبية مهم لحسم مسألة تجنيس أدب الرحلة،وهو ما يصطلح عليه "سعيد يقطين" بخطاب الرحلة، فيقول: «فبالخطاب، بما هو ترهين للرحلة نتعرّف عليها، ولنا أن نتخيّل كم من الأشخاص انتقلوا في المكان، ولم يتحوّل فعلهم إل خطاب؟كما أنّ لنا أن نتبيّن: كم من الرحالة جابوا الأقطار، وقطعوا الممالك، ولكنهم وظفوا المعارف والتجارب التي راكموها في رحلاتهم في كتابات لا علاقة لها بخطاب الرحلة»[4]. فأدبية الرحلة عند "سعيد يقطين" تتحقق في مستوى الخطاب السردي، الذي يحتكم بدوره إلى جملة من القواعد والبنيات والمنظورات السردية، وهو ما سنعمل على استثمار بعض مقولاته لاحقا خلال قراءتنا لرواية "لبيك حج الفقراء" التي قام مؤلفها بمسرحة حدث الرحلة إلى الحج، وصياغته ضمن نسيج سردي مُتخيّل لا بوصفه حدثا واقعيا صرفا.

أما إذا عدنا إلى استكشاف أنواع الرحلة قياسا إلى بواعثها، وبخاصة منها رحلات الحج؛ فسنجد أنّ الباحثين قد اقترحوا تصوّرات مختلفة، فمنهم من عدّ الرحلة تدوينا للأخبار والمعلومات التي يُحصّلها الرحالة عن أقوامَ آخرين، وغالبا ما تُوظف هذه المعلومات لأغراض استراتيجية، وهو ما تؤكده رنا قباني بقولها: « إنّ مفهوم الرحلة باعتبارها وسيلة لجمع المعلومات وتسجيلها ،أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية من القوة السياسية، فالرحّال يبدأ رحلته وتكون وراءه أمة ذات سلطان تدعّمه بنفوذها العسكري والاقتصادي والفكري والروحي»[5].

لا تجري الرحلات العربية جميعها على مقصدٍ واحد، فقد دأب الكُتاب في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، على تدبيج رحلات متفاوتة من حيث نوعية مادتها وأساليبها وأغراضها، إذ فضلا عن الرحلات السياسية التي قد تتضمن بدورها أشكالا أخرى كأن تكون وِفَادةٌ من حاكمٍ لإقامة صلح أو اتفاق أو دعوة أو إنذار، توجد رحلاتٌ تجارية تتحرى الكسب فقد: «كان التجار يضربون في أراض جديدة،عن طريق القوافل وعن طريق البحر وسفنه، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية وجنوبي خط الاستواء، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في أندونيسيا وغيرها من الجزائر الهندية النائية»[6]، أما الرحلات العلمية فتمخضت عن مقصدٍ نبيل، إذ كان أصحابُها يرتحلون لطلب العلم وملاقاة العلماء ومجالستهم والظفر بإجازاتهم ،ويمكن أن تكون رحلة ابن حمادوش المسماة: "لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحسب والحال"، مثالا لهذا الضرب من الرحلات، وهي الرحلة التي ظفرت باهتمام العلماء الغربيين لما فيها من فوائد علمية[7]، وتقدّم الرحلات الجغرافية وصفا للأمصار والمسالك والممالك وفيها: «دوّن كثير من رحالي العرب أخبار أسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي هبطوها والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزرعها وقيّدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيّب من عادتهم بالمديح،وعابوا ما فيهم من ضعف»[8]، وثمة رحلات للحج وشدّ الرحال إلى المزارات والبقاع المقدسة: «وكان الحج من أعظم بواعث الرحلات، فإنّ ألوف المسلمين يتّجهون كلّ عام من شتىّ أنحاء العالم الإسلامي إلى الحجاز،لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي.وكان الحجاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها والأحداث التي صادفوها، وقد كان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم، ويعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجاربهم، فيصفون رحلاتهم (...) كما كان أهل

الخير والتقوى في شتى البلاد الإسلامية يرحبون بإخوانهم المسلمين الميمنين شطر الأراضي المقدّسة ويُعنون بإقامة الرباطات وحبس الأوقاف وللإنفاق منها في سبيل راحتهم»[9].

لم تكن رحلات الحج -على قداستها- بمنأى عن المخاطر والتهديدات التي كانت تعترض قوافل الحجاج قديما، لذلك كان ركب الحجيج مما يهتم به حكام ذلك الزمان: «وتحكي لنا كتب التاريخ ومذكرات الرحالة أنفسهم أن العديد من الحكام و السلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه»[10]، وكانت قوافل الحجاج تنطلق من عدة بلدان إسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، فتأخذ بذلك هذه الرحلات شكلا جماعيا منظّما له مواقيته و طقوسه ومسالكه المعروفة، كما كانت قافلة الحج، يتولاها أمير ركب الحجيج، وتخصّص لها أموال ويُعيَّن لها قضاة وعلماء وأئمة يتولون شؤون الإفتاء والتحكيم في المنازعات، كانت رحلات الحج إذن، تشكّل تجربة حيّة ومثيرة لبعض الرحالة الذين عكفوا على تقييدها وتسجيل ما يتخلّلها من مشاهدات وأخبار وتجارب وأحداث وأوصاف يشهدها الرحّالة خلال هذه الرحلة المباركة، وكانت هذه التآليف تتضمن أيضا مقاطع من الشعر وفواصل من النثر ورسائل شوق وحنين إلى ملاقاة الرسول الكريم ﷺ والوقوف على قبره في الروضة الشريفة، وعليه، تغدو رحلات الحج موضوعا شديد التعقيد والتشعب، لأنّ له أبعادا اجتماعية واقتصادية ودينية وأدبية يصعب الإحاطة بها.

ظهر موضوع رحلة الحج إذن، في كتب الرحالة والمؤرخين و الأدباء العرب، واختلفت رحلات الحج من حيث طبيعة موضوع الرحلة والهدف منها، فثمة رحلات عامة لم تقتصر على وصف رحلة الحجّ وحدها، ومنها ما كان مخصّصا لموضوع رحلة الحج فقط، وقد نُحصي ضمن هذا النوع الأول كتاب (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) لابن جبير، وهو كتاب رحلة عامة ضمّنه صاحبها وصف رحلته إلى الحج والحجاز سنة 579هـ، وقد سجل ابن جبير في هذه الرحلة انطباعات وآراء آخذه عليها العلماءُ ، وإن كنا نرجّح شيئا من الحق في بعض تلك الآراء التي راح فيها ابن جبير يستنكر الأباطيل ويمجّ البدع التي راجت بين أهل المشرق ،وهذا شعور طبيعي ينشأ في نفس الرحّالة حينما تصدمه البئية الجديدة بما لم يألفه من عادات وسلوكات وأخلاق، يقول ابن جبير وهو يعزو فشو الفساد ببلاد المشرق إلى جور السلطان: «وليتحقّق المتحقّق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنّه لا إسلام إلاّ ببلاد

المغرب،لأنّهم على جادّة واضحة لا بنيّات لها. وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع، وفرق ضالّة وشيّع، إلاّ من عصم الله عزّ وجلّ من أهلها، كما أنّه لا عدل ولا حقّ ولا دين إلاّ عند الموحدين - أعزهم الله- فهم آخر أئمة العدل في الزمان. وكلّ ما سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة، يعشرون تجار المسلمين كأنّهم أهل ذمّة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكلّ حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يُسمع بمثلها، اللّهمّ إلاّ هذا السلطان العادل صلاح الدين، الذي قد ذكرنا سيرته ومناقبه، لو كان له أعوان على الحقّ... مما أريد الله عزّ وجلّ يتلافى المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه»[11]. ونذكر في زمرة رحلات الحج كتاب: (تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة وهي أيضا رحلة عامة، قادت صاحبها سنة 726هـ إلى الحج، وقد تضمّنت ملاحظات كثيرة عن الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية في الحجاز، والرحلة من إملاء أبي عبد الله ابن بطوطة على محمد ابن محمد ابن جزي الكلبي، الذي صاغ الرحلة بأسلوب أدبي ونقَّحها ولخصها بأمر السلطان أبي عنان فارس المريني[12]، أما من الرحلات التي كانت مخصّصة لرحلة الحج فقط، فنذكر رحلة: (ما رأيت وما سمعت) لخير الدين الزركلي، وهي رحلة في موضوع الحج، ألّفها الزركلي بأسلوب أدبي رائق راح يصف من خلاله رحلته من دمشق إلى القاهرة فمكة ثم الطائف التي استفاض في وصف أهلها وأعيانها وعلمائها وآثارها، ووصف ما جاورها من قرى وأودية وعيون وبساتين[13].

ومن كتب رحلات الحج أيضا كتاب (نحلة اللّبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب) لأبي العباس سيدي أحمد بن عمار الجزائري ، وتُعرف أيضا بالرحلة الحجازية ، أما الغرض المقصود من هذه الرحلة، فهو كما ذكر ابن عمار نفسه في رحلته يدور حول تلبية نداء الشوق إلى بيت الله العتيق وهو القائل: «لما دعتني الأشواق النافقة الأسواق، إلى مشاهدة الآثار والأخذ من الراحة بالثار، وأن أهجر الأهل والأوطان، ... وأمتطي ظهر السهر والسرى، لبيت داعيها وأعطيت كريمة النفس ساعيها (...) وأنا أضرع إلى من لا يُخيّب أمل الآملين، ولا يرد صِفرًا أكفَ السائلين... أن يجعل حركتنا أسعدَ حركة، مصحوبةً باليمن والبركة، وأن يقينا مصارعَ السوءِ والوبالِ، وأن يحمينا من مواقف الخزي والنكال، وأن يجعل رحلتنا لوجهه الكريم لا لعرضٍ فان، وأن يُكحِّل بإثمدِ رؤيةِ ضريحه الشريف ﷺ منا الأجفانَ وأن يسدّد منا الأفعالَ والأقوالَ»[14].

ومن كتب رحلات الحج الحديثة كتاب: (في منزل الوحي) لمحمد حسين هيكل، وهو مخصّص لموضوع رحلة الحج فقط، وقد تميّزت هذه الرحلة بطول نفس كاتبها الذي استغرق في سَوْقِ تفاصيل رحلة الحج، غير أنّ تجربة الحج في كتاب "في منزل الوحي" لم تعد مجرد شعيرة يؤديها المسلم كما يؤدي بقية العبادات والنُسك، بل لقد تحول الحج إلى ذريعة للتأمّل الفكري العميق في شؤون المسلمين والدعوة إلى الإصلاح، وهذا ملمح مهم يسم بعض رحلات الحج الحديثة، فقد نستطيع مثلا تبيّن ذلك في رحلة محمد حسين هيكل، كما لا نعدم وجود هذا الملمح نفسه في رواية "لبيك حج الفقراء" لمالك بن نبي، حتى وإن تفاوتت هذه النصوص من حيث جنسها الأدبي وأساليبها وأنساقها الثقافية، ويظهر الحج في كتاب "منزل الوحي" أيضا بوصفه منعطفا تاريخيا مهما في حياة المؤلف الذي انتقل من العلمانية إلى حياة تكلؤها روحانية إسلامية عميقة، يقول حسين هيكل معبرا عن هذا التغيير الجلل الذي طرأ على حياته الفكرية بعد تجربة الحج: «وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعا هدى ونبراسا. ولكنّني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه. وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلا لوحي هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة. وروّأت فرأيت أنّ تاريخنا الإسلامي هو وحده الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو . ولأبناء هذا الجيل نفوس قوية خِصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين»[15].

قد تأخذ أسفار الحج سمتا أدبيا، غير أنّ رحلة الحج الأدبية ، كما كلّ رحلة أخرى لم يُنظر إليها من حيث هي نوع مستقل، بل هي سردٌ واقعي أو تخييلي تفرّق على أجناس أخرى؛ مثل المقامة والسيرة والقصة والتأريخ والرسائل، ثم الروايات والمذكرات التي هي وليدة العصر الحديث، يقول شعيب حليفي مؤكدا هذا المعنى: «اتضحت معالم الاهتمام بالسرديات الكلاسيكية قصد رصد عناصرها وآليات اشتغالها، لكن نصيب الرحلة في هذه الدراسات كان ضعيفا على عكس نصوص السير والليالي والمقامات. ورغم تلاشي الرحلة في شكلها الفني وتحولها إلى عنصر مركزي في القصة والرواية، فإنّ هذا الجانب لم يحظ بالاهتمام الكافي، إلا في بعض الدراسات القليلة، لكن النقد الغربي خصّ الرحلات بالعديد من الدراسات والتحقيقات»[16].

فإذا صيغت الرحلات بأسلوب شائق، واغترفت من عناصر التخييل، فإنّها ستتحول حتما إلى نصوص أدبية بديعة، يعمد فيها كُتابها إلى وصف رحلة الحج، التي قد تكون رحلة حجٍّ حقيقية جعل منها صاحبها ذريعة لكتابة نص أدبي، يعتمد فيه على استرجاع بعض وقائع السفر التي حدثت بالفعل، كما يوظّف أسماء أماكن وشخصيات حقيقية، غير أنّ ثمة نوعا آخر من أسفار الحج الأدبية، هي في أصل وضعها مبنية على قصة حجٍّ مُخْتلقة اختلاقا، يتخذ منها كُتابُها معادلا موضوعيا لإشباع هذه الرغبة المكينة في السفر إلى البقاع المقدسة، والتي قد تكون حالت دونها عوائقٌ كثيرةٌ، إلا أنّ هذه القصة المختلقة أيضا قد تُستخدم أيضا ذريعةً لمطارحة قضايا اجتماعية وفكرية ودينية، وضمن هذا النوع الأخير يمكننا تصنيف رواية "لبيك حجُّ الفقراء" لمالك بن نبي.

وقد اخترنا العمل على هذه الرواية، لأنّها لم تكتف بتخييل قصة السفر إلى الحج، وإنّما جعلت من هذه الرحلة مناسبة أيضا لعرض سيرة بطل الرواية وساردها إبراهيم، وكان ذلك يتم وفق حيَّل سردية جعلتنا نكتشف أمشاجا قوية بين سيرة البطل/ السارد وسيرة المؤلف الذهنية، وهو ما دفعنا إلى جمع هذه التقاطعات لتشكل في الأخير عرضا مختلفا وغريبا ربما لسيرة مؤلف متوارٍ خلف قناع سيرة البطل .

زبدة القول إذن إن رحلات الحج- بوجه عام- تتخذ أوجها متعددة، فقد تكون نوعا سرديا تخييليا ينتمي إلى جنس الرواية أو القصة أو الرحلة المتُخيَّلة،أو تكون أوثق صلة بأدب الرحلة الجغرافي، أو أدب الرحلة الثقافي أو أدب الرحلة الديني والشعائري.ومهما يكن نوع الرحلة، حقيقية كانت أو افتراضية،أدبية أو غير أدبية، فإن جميع كتابها يصدرون عن موضوع مشترك؛ هو التعبير عن تمثل خاص لشعيرة الحج بكل ما يتعاورها من أفكار ومشاعر وأحداث ومقاصد.

ثانيا: رحلة الحج المتُخيَّلة في رواية "لبيك حج الفقراء"

أمضى مالك بن نبي حياته في تأمّل واقع الأمة الإسلامية، والتفكير في مشكلات الحضارة، وقد كانت مسيرته الفكرية والثقافية حافلة بالأحداث والإنجازات، إذ لم ينقطع الرجل عن الكتابة منذ صدور كتابه الأول: "الظاهرة القرآنية" سنة 1946، أتبعه بعذ ذلك برواية "لبيك حج الفقراء" سنة 1947، وهي رواية تأمّلية جسدت أطروحتها عن إمكانية التغيير والإصلاح من خلال رحلة الحج التي تحولت في الرواية إلى استعارة تنضح بالمعنى، وإن كان مالك بن نبي قد صرح لمريده "عمر

مسقاوي" بأنه عندما كتب "لبيك حج الفقراء"، فقد كان يريد كتابة قصة لا أن يكون مفكرا[17]، إلاّ أنه لم يستطع - مع ذلك- أن يتخلص من شواغله الفكرية وقضايا المجتمع التي تصاحب تأويل هذه الرواية، وإن بدت في ظاهرها معنية بوصف سيرة إبراهيم المتُخيَّلة، ووصف وقائع سفره إلى الحجّ، وما تخلّل ذلك من مشاهدات وخبرات مختلفة. وهذا ما سنحاول استكشافه من خلال قراءتنا لبنية السفر إلى الحج كما رسمتها رواية "لبيك حج الفقراء"، ونبدأ قراءة الرحلة من عنوانها.

1- عنوان الرحلة:

اختار المؤلف الإعلان عن بداية الرواية، التي هي في الآن نفسه بداية لحكاية الحج بعتبةٍ مركّبة بين لغتين، تتألف الأولى من جملة "لبيك"، في حين تستقر الثانية على جملة "حجُّ الفقراء"، أما الأولى فتحيل إلى لغة مرجعية تنضح بدلالات رمزية لها علاقة بنُسك الحج؛ فلبيك اللهم لبيك، نداءٌ خالد يتردّد صداه في ضمير كلّ مسلم في كلّ زمان ومكان، جاء في لسان العرب في معنى لبيك: «لبَّ بالمكان لبًّا، وألبَّ. أَقَامَ بِهِ وَلَزِمه. وألبَّ على الأمر: لَزِمه فَلَمْ يُفَارِقهُ، وقولهُم لبَّيكَ ولبَّيهِ، منه أي لزومًا لِطَاعتِكَ... من اللبِّ بالمَكَانِ فَأُبْدِلَتْ الباءُ ياءً لأَجْلِ التضْعِيفِ... قال الأَزْهَري: سَمِعْتُ أَبَا الفَضْل المنْذِرِيَّ يقولُ: عُرِضَ على أبي العبَّاس مَا سمعتُ مِنْ أَبي طَالِب النَّحْوِيّ فيِ قَوْلهم لبَّيْكَ: وسَعْدَيْكَ، قال: قال الفَراءُ: مَعْنَى لَبيْكَ إجابةً لكَ بعدَ إجابةٍ...وفي حَديثِ الإِهْلاَل بالحجّ: لَبيْكَ اللَّهُم لَبَيْكَ، هُوَ مِن التَّلبيةِ، وهِيَ إِجَابةُ المنَادِي أي إِجَابَتي لَكَ يا ربِّ... وَقيلَ مَعناهُ إِخْلاصِي لَك»[18].

أما اللّغة الثانية فهي لغة غريبة عن اللّغة الأولى، بما أنها تفتقد للرمزية ولكنها تدلف بقوة لتعلن عن بدء رحلة حج، وُسِمت بعد ذلك بوسمٍ خاص، فهذا الحجّ للفقراء، ولكنّنا نسائل المؤلف، مستغربين لهذا التوزيع الطبقي للحج أيضا، أثمة حجّ للفقراء وحجّ للأغنياء؟ في هذا النُسك الذي تذوب فيه الفوارقُ من كلّ نوع، غير أنّ العتبة قد حسمت الاختيار، فالحجّ هو بالفعل حجّ الفقراء ،ربما لأنّ في عبادة الفقراء صفاء وصدقا لأنهم على الفطرة ما لم تطلهم عدوى الفساد والزيف والتصنّع، ولأن إبراهيم بطل الرواية هو ذلك الرجل الفقير الذي لم يكن يملك كلفة الحجّ ولكنّه أخلص توبته لله، وبلغ به التبرأ من ماضيه المهين أن أقدم على بيع كلّ ما يملك وترك المكان الذي يذكّره في كلّ حين بخطيئة معاقرة الخمر واقتراف المنكرات، ليمضي إبراهيم في رحلة العمر إلى البيت العتيق، بعد أن استولى عليه ذلك النداء الأزلي "لبيك اللّهم

لبيك"، وبذلك يغدو العنوان مزيجا بين هاتين اللّغتين: الرمزية "لبيك" وهي تفيض بإيحاءاتها الدينية، والواقعية "حجّ الفقراء"، وهي تَعبٌ من معين الواقع الحيّ الذي يستغرق حياة المسلم ويغرقه أحيانا في سيلٍ عرمٍ من الأخطاء والمعاصي، لكن النداء الخالد "لبيك" سوف يأتي لا محالة ذات يوم ليكون مخلِّصا ومُطهّرا، وبذلك يكفّ عنوان الرواية عن أن يكون مجرد علامة موقوفة على الحجّ، بوصفه رحلة تعبديّة محدّدة في الزمان والمكان، بل هو يمنح الحجّ مدلولا أكثر عمقا، فالحجّ هو ذلك المعراج الروحي الذي يجعل المسلمَ على صلة دائمة بالله، وهو مصفاةٌ للأفعال والأقوال ونداءٌ حيٌّ لا يفتر في قلب كلّ مسلم مفطور على حبّ الفضائل وكراهة الرذائل، بل إن الحجّ هو رؤية إلى العالم ومشروع حياة.

2- بنية رحلة الحج المتخيّلة:

ولما كان لكل رحلةِ حجٍ أدبية قواعد تنتظم نسيجها السردي، فقد أفصحت رواية "لبيك حجّ الفقراء" عن ثلاث بنيات رئيسة هي: بنية الخروج وبنية السفر وبنية الوصول، وهي البنيات التي سنعمل على استكشافها في العناصر الآتية:

أ- بنية الخروج:

تعرض بنية الخروج وضعا سابقا عن الرحلة، وليس هو الرحلة ذاتها، وفيها تظهر علامات الخروج وشروطه وأعرافه بوصفها تهيئة مناسبة لرحلة الحجّ، أما رواية "لبيك حج الفقراء"، فقد قدّمت مشهد الخروج إلى الحجّ كصورة مقتطعة من واقع الحياة الذي كان سائدا في الجزائر إبان الحقبة الاستعمارية في فترة الأربعينيات تحديدا، حينما كانت قوافل الحجيج تنطلق من سواحل مدينة عنابة، حيث ترسو البواخر التي تحتضن الحجيج المغاربة، فالسفر في رحلة الحجّ لا يكون فرديا، وإنما ضمن ركب منظّم يتألف من جماعات من مشارب ولغات متباينة: «إنّ حجيج القطاع القسنطيني القادمين إلى عنابة ليستقلوا الباخرة، كانوا عندما يمر عليهم القطار خلال هذا الأريج يشعرون بأنّه نسمة من رَوْحِ الجنة وريحانها وبشرى بالرحمات لعباده المخلصين فيزدادون بذلك إيمانا على إيمانهم وهم يردّدون بين طرفي القطار بصوت واحد "لبيك اللهم لبيك"»[19].

تتأتى تفاصيل مشهد الخروج من رؤية ساردٍ مشاركٍ، أو ملاحظٍ وكده وصف المرحلة التي تسبق السفر، وهنا يُزوَّد القارئُ بأخبار وأوصاف عن المدينة وطباع أهلها وعاداتهم، و قد يشعر القارئ بالدهشة إزاء هذا العالم الذي تنقلنا إليه الرواية،

لأنّنا نكتشف إنسان المدينة القديمة الذي لا يشبهنا، ونستعيد ذاكرة المكان ونتعرف على أزمنة بالغة العتاقة، فذاك هو وجه الغرابة الذي تطالعنا به رحلة الحجّ الأدبية المتخيّلة في رواية "لبيك"، فهنا ما يزال الناس يقدسون الحاجّ ويغمرونه بعطفهم ورعايتهم، وهم إلى جانب ذلك مستمسكون بقيم وعادات لم يعد لها وجود في قاموس حياتنا المعاصرة التي شابها تفكّك العلاقات بين الأفراد والجماعات واستحواذ الشعور بالأنا الفردي في عزلته وأنانيته: «إن عنابة كانت تعيش في عرس وكانت تستقبل الحجيج الوافدين بالقطارات والذين بواخرهم قد رست.فينتشرون في المدينة للتزوّد بالزاد الذي يكفي للرحلة، أو للصلاة في المسجد. كثير من الحجيج الوافدين بالقطارات تستضيفهم عائلات المدينة حيث تتشرف بتقديم آخر الوجبات للمتوجّهين إلى البقاع المقدسة. فالحاجّ ليس ضيفا عاديا، لذا يجب أن تحفظ أصول الضيافة معه حتى عجائز الدار المضيفة يخصصنه باستقبال حار مفعم بأجواء عائلية وكلّهن حزن شديد لأنهن لم يفزن بسعادة (غسل عظامهن) بماء زمزم»[20].

يتضمن مشهد الخروج كذلك خطابا افتتاحيا، تؤسّس من خلاله كلّ رحلة خطابها الإقناعي الذي وكده استعراض أسباب الخروج التي تتراوح بين الرغبة في إتمام الفريضة والشوق إلى الروضة والرغبة في التطهّر من الذنوب، وبالطبع كانت لرحلة الحجّ الأدبية دوافع مشابهة، فرحلة الحجّ هي حلم إبرهيم الذي استيقظ فجأة على وخز خطاياه فمن معاقرة الخمرة إلى تطليق زوجه إلى الأذى الذي ألحقه بجيرانه، كان الندم قد تحوّل إلى ينبوع ألم فكانت التوبة ثم جاء حلم الحج مسلكا للخلاص من ثقل الخطيئة، فالحجّ هو نداء التطهر في ضمير كلّ إنسان معرض للخطيئة مجبول على الخطأ: «غير أن شيئا ما لا يصدق كان قد أضاء في شعوره والذي استسلم بعده لسكون لذيذ... لبيك لبيك ... لقد فاجأه صوته الشاذ الذي اخترق صوت المحل . لكن روحه واصلت ملاحقة حلمه، الذي أقحم فيه كل ما يعرفه من مفاهيم عن الحجّ»[21].

تقدم الرواية إذن رحلة الحج كحدّ فاصل بين مرحلتين متناقضتين، مرحلة السقوط وانهيار القيم التي تعقبها مرحلة التسامي والتطهّر، فيكون الحج بذلك برزخا فاصلا بين مرحلتين وحياتين ورؤيتين إلى العالم: «بدأ قلب إبراهيم في الخفقان عند رؤية عمال المراقبة، فانتابه خوف شديد خشية ألا يجدوه مستوفيا للشروط لسبب أو لآخر، حتى إنه ارتعد لرؤيته أحدهم وهو يتفحصه.أرعبته نظرات المراقب إليه فكاد يصرخ طالبا النجدة ليجتاز عائقا قد يمنعه من السفر. لم يبق لإبراهيم إلا خطوات من

العبّارة. تقدم وهو يردّد دعاء في سره ... شعر إبراهيم بالأمان وهو يمر من فوق العبّارة التي اعتبرها منقذته من العالم المتوحش والخطير الذي تنصّل منه عندما وضع رجليه على المركب شعر وكأنه تخطى عتبة عالم جديد، أطلق زفرة كلها رضا. الحمد لله»[22].

تعمل كلّ رحلة حج أدبية أو غير أدبية على دعم بنية الخروج بخطاب افتتاحي ينهض بمهمة تجميع علامات الخروج التي تشكّل في مجموعها إشارات تسبق الرحلة وتدل عليها، ففي رحلة حجّ إبراهيم تَسَّاقَط الإشارات الإلهية والبشارات والرؤيات والاستيهامات التي تتنبأ برحلة الحجّ وتحدس بها، وبذلك تأتي الأحلام والرؤى حافزا آخر للارتحال، إنّه النداء الباطني الذي تترجمه الأحلام حتى يغدو واقعا نراه رأي العين ونلمسه بكلّ جوارحنا،وهاهي الرواية لم تفلت هي الأخرى من قبضة هذا التحفيز الاستصرافي الذي يسبق الرحلة غالبا: «وتذكّر فجأة: "أجل لقد حلمت بالكعبة". شيئا فشيئا بدأ حلمه يتّضح، لقد رأى نفسه في لباس الإحرام، اللباس الذي يرتديه الحاجّ خلال أدائه لتلك المناسك. ترك هذا الحلم إبراهيم في حيرة من أمره، كان يريد أن يجد تفسيرا لهذا الحلم»[23].

يضاف إلى علامات الاستصراف دخول السارد / الحاجّ إلى المسجد أو الصلاة فيه أو التبرك به أو المرور بمحاذاته وهي كلّها علاماتٌ متاخمة لمشهد الخروج، قد أعارتها الرواية أهمية خاصة. كما وفرت الروايةُ علاماتٍ أخرى تندرج بدورها ضمن بنية الخروج، يتعلق بعضها بآداب وتقاليد السفر التي لا يصح تجاوزها، لأنها مقنّنة ويستمد بعضها شرعيته من فقه العبادات الإسلامي، فقد استفاض الغزالي مثلا في ذكر آداب السفر، إذ على المسافر إذا عزم على السفر إلى الحجّ؛ أن يرد المظالم و يقضي ما عليه من ديون ويُعد النفقة ويتزوّد لدنياه بالطعام والشراب، ولآخرته بتعلّم أحكام الدين، وأن يختار رفيقا ممن يعينه على أمر دينه، وغيرها من التقاليد التي اقترنت بالسفر و بفريضة الحجّ على وجه الخصوص[24]، وهو ما لم تغفل "رواية لبيك حجّ الفقراء" عن توفيره ضمن نسيجها السردي ، فقد حصل إبراهيم على جواز سفر الحاج وسدّد نفقات السفر، وابتاع لباس الإحرام، وسوى كلّ شؤونه المادية المعلّقة، وتزوّد من العمّ محمد بكلّ التوصيات الخاصة بسلوك الحاج وتعلّم منه كيفية أداء مختلف المشاعر والنسك، وقد أعدّت له العمّة فاطمة غرفة عبّقتها بالبخور وأعدّت على شرفه وليمة على عادة الحجيج في الجزائر، وحين غادر حمل معه مؤونة الرحلة[25].

تحاكي رحلة الحجّ الأدبية في مقطعها الافتتاحي هيكل القصيدة الطللية التي تدشن خطابها الاستهلالي بذكر الأحبة وبكاء الطلل ووصف الرحلة وذكر وعثاء السفر، وكذلك تنشئ رحلة الحجّ الأدبية مشهدَ خروجها وفق هذه الصورة حيث تتجمّع في مطلعها مشاعر متناقضة تتأرجح بين الشوق والفرح والحنين والحزن على فراق الأهل والأحبة وتشييعهم قبل الشروع في رحلة إيمانية شاقّة، قد تكون بلا أوبة ،وكان لإبراهيم - سارد هذه الرواية- نصيبه من هذه الأحاسيس: «كان يفيض رقة لكلّ من يراه في الشارع وهو متجه صوب بيت العم محمد. انصرفت نفسه للإحساس بالحنين المسبق إلى هذه الأماكن، يخالطها شعور مبهم بعدم رؤيتها مجددا »[26]، وإنه تارة أخرى ليستشعر حزنا على فراق أهله: «تبسّم إبراهيم للعجوز حتى يحبس دمعة هربت من مقلته بادلته العمة فاطمة ابتسامة وهي متأثرة ومدركة للّحظات المثيرة للشجون التي يعيشها الحاجّ والتي جعلته يأتي قائلا: أرجوك يا عمتي فاطمة أن تشكري زهرة عني لأنها أرسلت إلي بهذا التذكار في مثل هذا اليوم، أخبريها أني سأدعو لها عندما أكون عند النبي ... وسأدعو لكم جميعا»[27].

تتوشح كلّ رحلة حجّ ببكائية تصل البدايات بالنهايات وتكون وسما لكليهما، وإن كانت تلك البكائية أميل إلى التحول والانقلاب، فحين الانطلاق يكابد الحاجّ هجينا من المشاعر تتراوح بين الحزن على فراق الأحبة والشوق للقاء حبيبٍ أولى بالحبّ وأحق بالصحبة ﷺ أما في نهاية الرحلة، فإنّ تلك المشاعر تنقلب إلى حزن مكين على فراق الحبيب وترك أقدس البقاع، يخالطها فرحٌ بلقاء الأحبة والعودة إلى الديار.غير أنّ مبدأ انقلاب النهايات على البدايات ملمح محذوفٌ في رواية مالك بن نبي "لبيك حجّ الفقراء"، وهو ما سوف نتبيّنه في كلٍّ من بنيتي السفر والوصول.

ب- بنية السفر:

تُسفر كلّ رحلة حجّ عن رحلتين فرعيتين، إحداهما للذهاب والأخرى للإياب، تعجّ الأولى بالتفاصيل وتميل الثانية إلى اقتصاد السرد تفاديا للحشو، وبذلك شكّل السفر ذهابا وإيابا العمود السردي لكلّ رحلة مهما كان نوعها، وذلك هو المعنى اللغوي الذي يقتضيه لفظ السفر: «سَفَرَ البيتَ وغيره يَسْفِرَهُ سَفْرًا: كَنَسَهُ، وأصله الكشفُ... وانْسَرَفَتِ الإبلُ إذا ذَهَبَتْ في الأَرْضِ.والسَّفَرُ خِلاَفُ الحَضَرِ، وهو مُشتقٌّ مِن ذَلِكَ لما فِيهِ مِن الذَّهَابِ وَالمجِيءِ»[28].

تخضع كلُّ رحلة لهذا النسق الزمني الدائري، الذي يقتضي بدوره الانطلاق من مكان بعينه ثم الأوبة إليه، غير أنّ هذه الدائرية لم تتحقق في رواية "لبيك حجّ الفقراء" التي اتخذت شكل رحلة في اتجاه واحد، أو هي رحلة ذهاب دون عودة، وهذا يعني أن رحلة الحجّ المتخيّلة في الرواية غير مكتملة، أو ربما قد تعرضت لتعديل، لأننّا لا نستسيغ - بوصفنا قراء الرواية الافتراضيين- أبدا قصةَ حجٍّ لا تنتهي بعودة الحاجّ إلى أهله !!..، فالحجّ حركة دائرية كاملة في الزمان والمكان، وقد جاء في معناه اللغوي: « الحَجُّ: القصدُ. حجّ إلينا فلانٌ أي قَدِمَ وحجَّهُ يحجُّهُ حجًّا: قَصَدَهُ... تمّ تعُورفَ استِعْمَالُه في القَصْدِ إلى مَكةَ للنُّسُكِ والحجّ إلى البيْتِ خَاصَّةً... والحجُّ قَصْدُ التَّوجُّهِ إلىَ البَيتِ بالأعْمالِ المشْروعَةِ فَرضًا وسنّةً ...حِجُّ بالكسر وهو اسم الحاجّ... وقال الزجاجُ في قوله تعالى"ولله على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ؛ يُقْرَأُ بفتحِ الحاءِ وكَسْرِها والفتحُ الأَصْلُ... و"الحجّ أشهرٌ معلوماتٌ" هِيَ شَوَّالٌ وذُو القَعْدَةِ، وعشرٌ مِنْ ذِي الحِجَّةِ»[29].

لقد انزاحت رواية "لبيك حجّ الفقراء" عن عمود رحلات الحجّ ، حينما أسقطت حدث عودة الحاجّ إلى أهله، فاختزلت بذلك كلّ لحظات الترقّب التي تسبق حدث الوصول، مع ما يحتمله هذا المشهد الرائع من مشاعر الدهشة والشغف والقداسة، فمن منا لم يُخزّن في ذاكرته صورةً لحاجٍّ عائد لتوّه من مكة، يرفل في النّور والبياض، فللحجّ صوتٌ وصورةٌ ورائحةٌ ومذاقٌ وحركاتٌ وعلاماتٌ لا تنسى. لكنّ الرواية عمدت إلى إرباك توقّع القارئ، بمخالفة ذخيرته ونسق معرفته المسبقة عن رحلة الحجّ، فاكتفت بوصف رحلة الذهاب إلى البقاع المقدسة دون رحلة العودة، لأنّ إبراهيم فضل الإقامة في الحج، وفي هذا دلالةٌ واضحة على رمزية رحلة الحجّ، التي لم تكن الرواية تراهن على واقعيتها بقدر ما وظفتها لتمرير احتجاجها على الواقع، لكأنّ قرار الإقامة في الحجّ هو الخيار الأمثل الذي تقترحه الرواية بشكل استعاري للانعتاق من بؤس الواقع الذي كان يكابده الجزائريُ في كنف الاستعمار الفرنسي، مع ما يحتمله قرار الإقامة أيضا من إيحاء قوي بفكرة الالتفاف حول الإسلام الذي أضحى بهذا النوع من الترميز ملاذا للبلاد المستَعْمَرَة .

تشكّل رحلة السفر ذهابا إلى الحجّ، لحمة النسيج السردي للرواية ولبَّه، وفيها تقع معظم أحداث الرحلة وما يصاحبها من أوصاف ومشاهدات وحوارات تُروى جميعها انطلاقا من عين السارد الملاحظ والمتتبع لكلّ ما يجري، وغالبا ما تجيء هذه الأخبار مبطَّنة بأحكامَ خاصة؛ هي محصّلة خبرة السارد ورؤيته إلى الواقع

المروي والمسموع. فهنا وعلى ظهر باخرةٍ تمخر في عنادٍ أمواج البحر المتوسّطي في رحلة شاقة إلى الحجاز، تقدّمُ الروايةُ مجتمعَ الباخرة، وقد انصهر في وحدة متناغمة هي مدعاةٌ للعجب والدهشة، على الرغم من أن أفراده ينحدرون من جنسيات ومشاربَ وأطياف مختلفة، لقد عُني السارِدُ بالتقاط مختلف صور المثاقفة بين أفراد مجتمع الباخرة وتقريبها من عين القارئ، فما أكثرها الأحاديثُ والأخبارُ التي تردّدت في الباخرة عن اللّغات والأفكار والأخلاق واللّباس وألوان الطعام والأوصاف التي يقدّمها السارد دون أن يبحث عن تبريرات لها، لأنّه يراها بعين المسلم البسيط الذي يقبل الاختلاف ويحب الاختلاط بالآخرين، أليس ذلك هو حجّ الفقراء: «اختلط إبراهيم بعد إتمام الصلاة بالركاب الجدد،مقدّما خدمة هنا وإرشادا هناك حتى إقلاع المركب.لقد وجد إبراهيم أنّ التونسيين أكثر روحانية وبشاشة. كان يفضلهم على أهل المغرب الذين وجدهم منطوين قليلا ومنزوين»[30]. هذا، ولم تتوان الرواية أيضا عن تقديم ساردها/ الحاجّ إبراهيم، في صورته الإنسانية الصادقة بعيدا عن كلّ تزييف أو مبالغة، حتّى وإن كان يُفترض أن تبلغ روحانية هذا الإنسان الحاجّ أسمى مراتبها خلال رحلة الحجّ، فقد تَصْدرُ عن هذا السارد انطباعاتٌ عن الآخرين، وأحكام مدعومة برؤيته الخاصة وتجربته مع الأغيار، ولكنّه لا ينزع أبدا إلى تعميم تجربته وفرضها على الآخرين، فما يقوله السارِدُ وما يفكر به يخصّه هو وحده ولا يخص أحدا سواه، ومثل ذلك هذه الأحكام التي تعكس جهل السارد بالآخر تارة، أو انبهاره بغيره تارة أخرى: «كان إبراهيم على عجلة من أمره ليختلط مع باقي الحجاج الآتين من أمصار أخرى لقد سمع منذ زمن ليس ببعيد عن أهل (جاوة) الصالحين، عن (الهنود المترفين) عن (الصينيين الغامضين)، عن (أهل بخارى الكرام)، عن (العرب الفصحاء) وعن البدو الصاخبين) ...تساءل: "هل ينطق الصينيون الحمد لله مثلنا". كان عنده شك في ذلك»[31]، وهو يقول تارة أخرى: «ثمّ إن ملابس أهل مكة تعطي أصحابها منظرا دينيا يبهر رجلا جزائريا عاديا مثل إبراهيم»[32].

لا تستنكف رحلة الحج المتخيّلة- مثل كلّ رحلة أخرى- عن رسم صورة عن الآخر، الذي قد ينتمي إلى كيانات مختلفة أو غامضة أو بعيدة؛ هي بالنسبة إلى السارد عالم من الغرابة يتطلّع إلى استكشافه ومعرفته، وهذا أدعى إلى القول بأنّ هذه الصورة المتخيّلة عن الآخرين ليست هي حقيقتهم المطلقة بالضرورة.

ج- بنية الوصول:

يقترن مشهد الوصول باللحظة التاريخية التي تعانق فيها عينُ السارِدِ البيت الحرام، وتتعلّق متمسّحة بأستار الكعبة، فإذ بالصورة الذهنية التي كان قد خزّنها الرحّالة عن المكان المقدّس يُعاد تأسيسها لحظة الوصول ممزوجةً بمشاعر الدهشة والشوق، قد تكون أعمق وأمضى تأثيرا من الصورة المتخيّلة عن المكان قبل الوصول، وهذا يثبت أن الصور الذهنية التي نخزنها عن الأماكن المقدسة، هي محصّلة حدوس وانطباعات أوّلية ستنتهي إلى تمكينها في نفس الحاجّ الذي، على الرغم مما قد يطالعه من صور صادمة أثناء رحلته إلى الحجّ، إلا أنّ نفسه تفيض مع ذلك بحبّ المكان والاستغراق في مشاعر الألفة والطمأنينة.

غير أنّ بنية الوصول في الرواية جاءت مُضمرة بحذف ضمني، لأنّنا لم نكتشف نهاية قصة الحاجّ إبراهيم إلا حينما بلَّغ حاجٌ عائدٌ إلى بونة العمَّ محمد رسالةً من إبراهيم ، تقول الرسالة: «إلى عمي العزيز الوقور التقي... أنا سعيد بإخباركم أني وصلت إلى المدينة المنورة منذ أيام بعد أن أديت جميع مناسك الحج أنا أحمد الله أن سهّل لي طريق العودة إلى الطريق المستقيم بعد أن سرت طويلا في طريق الزلل والخطايا..» [33].

لقد أُسْقِطت بنية الوصول كما أسقطت بنية العودة من الرواية، وهذا أدعى إلى دعم السمة الرمزية لرحلة الحجّ في روايةٍ استغنت عن قُفل الحكاية، واختارت ألاّ تعود إلى بدايتها.لأنّ حكاية الحجّ بلا منتهى. وعليه يغدو الحجّ فلسفة حياة جديدة، تقطع صلتها بكل إحباطات الماضي وأوهامه وأمراضه، الحجّ ليس مجرد نُسك، بل هو فعالية حضارية ممتدة في الزمان والمكان، الحجّ هو كلّ عمل خلاّق لا يفتر، أوَ لم تقل الرواية حكمتها "الحجّ حجُّ الفقراء"، لكأن حاجة الفقير إلى التغيير، هي حِجُّه وحُجَّته، ولو لم تقل الرواية غير هذا، فحسبها ذلك.

3- تأويل الرحلة/ لبيك حج الفقراء بين سيرة البطل وسيرة المؤلف:

أقامت رواية "لبيك حج الفقراء"، عمودها السردي على تخييل سيرة بطلها إبراهيم، وإن كنا لا نعدم وجود أمشاج قوية بين هذه السيرة المتخيلة وسيرة مالك بن نبي الذهنية؟، وعلى هذا يبدو أن رواية "لبيك حج الفقراء" هي تمثيل أدبي لأفكار مالك بن نبي، وأن ليس بين سيرة المؤلف وسيرة السارد سوى ذلك الجدار الوهمي

الذي يفصل الأدب عن الحياة. ولكنه جدار يريد أن ينقض، وهذا أمر يدعونا إلى تأمّل بعض التقاطعات الممكنة بين سيرة السارد وسيرة المؤلف.

قدّمت رواية "لبيك حجّ الفقراء" بطلها إبراهيم،وهو ينتقل،من خلال استعارة رحلة الحجّ، من طور الضعف واللافعالية إلى طور القوة والفعالية، إنّ هذه النقلة التصاعدية التي تحقّقت في مستوى سيرة البطل، هي ترجمان عملي لآراء مالك بن بني الواردة في مؤلفاته النظرية الأخرى، بخاصة منها كتابه: "الظاهرة القرآنية"، فقد دعا مالك بن نبي إلى فكرة الإقلاع الحضارية، التي تقوم على الإيمان العميق بالفكرة التي نتبناها، والتمسّك بها والدفاع عنها.

لقد كان إبراهيم في أول أطوار ضعفه، عربيدا متشرّدا، إلى أن سكنته فكرة الحجّ للتطهّر والتخلّص من ضعفه والبدء من جديد، وكانت بداية رحلة الحجّ، هي بالفعل بداية التغيير، إذ نلفي إبراهيم شخصية أخرى متفتّحة وفعّالة ومتعاونة اجتماعيا، وربما كان ذلك من تأثير فكرة الحج التي ملكت عليه كيانه وجعلته، بعد انطلاق الرحلة، وجها لوجه مع شخصيات أخرى قادها الشوق نفسه إلى الحج، هكذا راحت الشخصية تبدي قابلية كبيرة للاستجابة والحوار، كما لم تكن تنقصها القدرة على الملاحظة والتعرف على تركيبة مجتمع الباخرة، وفي هذا الملمح بالذات تلتقي سيرة البطل بسيرة المؤلف مالك بن نبي، الناقد المحلّل الذي يمتلك القدرة الفائقة على الاندماج في المجتمع ومعرفة تركيبته و تحليل طبائع البشر فيه، فهو القائل عن سكان (أفلو) عندما أقام بين ظهرانيهم زمنا بوصفه مساعدا في المحكمة: «أما في (أفلو) فقد لاحظت الرجل يرفض غالباً أن يحلف ولو كان ذلك لدعم حقه الواضح»[34].

تبدو شخصية إبراهيم في الرواية شخصية حالمة وعاطفية[35]، وهي موزاية بشكل جلي لشخصية مالك بن نبي كما ترسمها ريشة الكاتب نفسه في كتابه "مذكرات شاهد للقرن"، لم يكن مالك بن نبي يستطيع حبس مشاعره إذا واجهته مواقف مؤثرة، وهو القائل عن نفسه:« وأستطيع منذ تلك الفترة أن أعرف بنفسي ثوريا من الوجهة السياسية محافظا من الوجهة النفسية. وفي كلّ مرة كان الماضي ينتقم من تلك الضربات التي أكيلها له. فثوري محافظ ذلك تعريف لا يعطي كل تفسير لذاتي فالأمر أكثر تعقيدا من ذلك. فأنا شديد التأثر بالحدث، وأتلقى صدمته بكل مجامعي وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ»[36]، بل

إن حساسية المؤلف لتستثيرها الكتب والمطالعات مثلما تستثيرها الوقائع الحقيقية يقول مالك بن نبي:« تيمي و(تيميمون) و(عين صالح): هذه الأسماء استهوتني واستوقفتني مرارا أمام خريطة الصف؛ فالصحراء كانت تفتنني، وقد ظل سحرها يلف روحي طويلا حتى حين استفاقت إلى آفاق بعيدة، كما وعيت في ذلك الوقت الدسم اللذيذ الذي صبّته فيّ ايزابيل ابرهارت (ysabelle Ebrhardt)، وقد تولى فيكتور بروكان (victor Berucand) تعريف العالم بكتابها الرائع الجذاب. ولقد قرأت مرارا كتاب تلك المرأة المغامرة التي أنهت حياتها في (عين صفرا) في ظروف مشؤومة مؤسفة. كنت أبكي وأنا أقرأ ذلك الكتاب المسمى A l'ombre chaude de l'islam (في ظلال الإسلام الدافئة) والذي عرفت فيه شاعرية الإسلام وحنين الصحراء»[37]، أما أحاديث حجّ والدته، فكانت تبكي مالك بن نبي الطفل أكثر من أيّ شيء آخر: «كانت والدتي تنتظرني لتقص علي قصة حجها، ولكن كان الحديث مؤثرا تهزني منه هزات لا أستطيع كبتها، فأتظاهر بالعطش حتى أذهب إلى الشرفة حيث توجد برادات الماء فأطلق العنان للدمع»[38].

ومن التقاطعات الواضحة بين سيرة إبراهيم وسيرة المؤلف، مكابدتهما للفقر، فقد عانى مالك بن نبي من الفقر في طفولته وفي شبابه سواء في الجزائر أم في فرنسا، ومع ذلك فإنه يقدّم لشبابنا في مذكراته أنموذجا جيّدا للاحتذاء في الكفاح والمثابرة والعمل والتفاؤل، فقد عمل بعد تخرجه من الثانوية في مصنع للأسمنت في مدينة (ليون) بفرنسا، فكان يحمل الأكياس على ظهره، وحين اشتدت به الفاقة باع معطفه، لكنه لم يخجل من فقره، بل كان يخُجله أن يظل بلا عمل.لقد كره مالك بن نبي الفقر، لأنه يذكره ببؤس الجزائريين الذين تذهب خيراتهم إلى المستعمرين المترفين في الدور والقصور والأراضي الغنية، كان ابن نبي يلجأ دائما إلى المقارنة بين بؤس الجزائريين وثراء الفرنسيين، يقول في مذكراته: «لقد اتخذت أفكاري منعطفا جديدا، فالأشياء قد أصبح لها معنى جديدا في نفسي، وحينما كنت أذهب إلى خالتي بهية كان يخالجني شعور بالضيق، وحينما كنت أتنزه مع صديقي شوات (Chaouatt) الذي كان والده مترجما في مراكش، كان ثمة عمليات غريبة تعتمل في نفسي في تلك الشوراع الأوربية في قسنطينة، فقد كانت الدور المترفة تفضح أمام ناظري بؤس خالتي بهية»[39]، لقد كان الفقر أثرا من الآثار الكثيرة البائسة التي سببها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، لذلك لم يجد مالك بن نبي مندوحة عن مقاومته والتنديد به، لكن فقر إبراهيم - في سيرته المتُخيّلة- محصّلة عوامل داخلية واجتماعية، بل هو نتيجة

تدهور قيم الشخصية وانحدارها أخلاقيا، ناهيك عن انهيارها اقتصاديا، لذلك حينما تعلّقت الشخصية بأهداب رحلة الحجّ المتخيّلة، كانت في الوقت نفسه تنشد التغيير الحضاري، ولكن أيًّا ما يكن شكل الفقر الذي ترسمه السيرتان - الواقعية والمتخيّلة- فإنّ الفقر يشكّل أحد أهم شواغل الكتابة عند مالك بن نبي.

ترصد الرواية من جهة ثانية نمو وعي الشخصية، بما يجري من حولها ونجاحها في استعادة التوازن الذي هو شرط التغيير المرتقب، وربما ذلك يشاكل أيضا سيرة مالك بن نبي الذهنية في بعض مناحيها، فهو رجل الفكرة وقد نذر حياته للدفاع عنها، كما عُرف عنه أيضا تقريعُه الدائم لأولئك المثقفين الذين استبدلوا ذلك الذي هو أدنى بالذي هو خير، فتخلوا عن رسالة الإصلاح والتصدي لمشكلات المجتمع وقضاياه، لذلك رفض ابن نبي أن يُحشر في زمرة هؤلاء بل لقد رفض أن يُهديهم كتابه "مذكرات شاهد للقرن" حين يقول :«وربما يعجب أولئك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم، إنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم، ولكن للشعب عندما يستطيع قراءة تاريخه الصحيح، أي عندما تنقضي تلك الخرافات التي تعرض أحيانا أفلاما كاذبة، والتي سيكون مصيرها في صندوق المهملات مع مخلفات العهد الاستعماري »[40].

هي نصوص مالك بن نبي إذن، تتبادل التأثير فيما بينها، لأنّ الرواية قدّمت فكرة الإقلاع الحضارية، وقد توارت خلف حكاية "إبراهيم" وسيرته المتخيّلة، وبذلك تراءت "رواية لبيك حجّ الفقراء" رواية أطروحة، لأنّها لم تكن تنشغل بنفسها وفنّها، قدر اهتمامها بشعارها الذي يحتمل بدوره دعوةً صريحة إلى الاستمساك بالأخلاق وإحياء المندثر منها، لقد كانت الرواية تبثُّ رسالة احتجاجها على وضع مجتمعٍ خسر الكثير من قيّمه التي يجب أن تُستعاد، كما كانت ترصد صورةَ وطنٍ يتطلّع إلى أفق واعد بالتغيير، فالحجّ إذن، لم يكن هو موضوع الرواية، بل هو كل الرواية، إنّه استعارتها التي تنضح بالمعنى وتبشربه، فالحج تحوّلٌ ومعراجٌ وانعتاق وإعمارٌ، الحج فعالية حضارية.

الخاتمة:

ما يزال البحث في موضوع الرحلة المُتَخَيَّلة في الأدب الجزائري بحاجة إل استكشاف جمالياته و طرائقه في الصوغ، واصطناع مختلف الحيّل السّردية التي تجعلنا نضع بعض الرحلات الأدبية المتخيّلة في مواجهة صريحة مع ميثاق سيرة المؤلف الذاتية والذهنية في آن، وقد علمنا أنّ الرحلة رحلات؛ بعضها جغرافي، وبعضها يسهم في إشكالية الجدل الحضاري، بل إنّ الرحلة في تصورنا أقرب لأن تكون مجالا ملائما لتكامل المعارف والفنون والآداب والعلوم وتداخل الأجناس، إذ لطالما التبست الرحلة بأنواع سردية أخرى مثل الرسائل والتراجم والسير والقصص والأخبار والسير الذاتية والمذكرات واليوميات والروايات الحديثة، لذلك وجد الدارسون مشقة في التمييز بين الرحلة والأنواع السردية الأخرى .

تقوم رحلات الحجّ على موضوع السفر إلى البقاع المقدّسة، سواء أكانت هذه الرحلة حقيقية أم مُخْتلقة اختلاقا، وقد يكون بعضها رحلات عامة لا يقتصر على موضوع الحج وحده، ويكون بعض منها وقفا على موضوع رحلة الحج فقط، ومعلوم أنّ رحلات الحج ما انفكت تشكّل ذخيرة تراثية قيّمة لما تتضمنه من أخبار ومعلومات نادرة عن عصر الرحالة وبيئته، أما رحلات الحجّ الحديثة فتنفرد بسمات لم توجد في رحلات الحج الكلاسيكية، إذ لم تعد رحلة الحجّ مجرد شعيرة تعبديّة، بل أضحت نصّا سرديا له قوانينه ،كما يضمنه مؤلفه رؤية إلى العالم ويسرب من خلاله نقدا للواقع .

غالبا ما يعيد المؤلف في رحلة الحج الأدبية، سواء أكانت هذه الرحلة حقيقية أم مُخْتلقة، صياغة مادة محكيه وفقا لأنساق أدبية الرحلة، وهو ما دعا إليه البنيويون الذين تجاوزوا المعنى السطحي للرحلة وجعلها وقفا على فعل السفر وحده، واشترطوا تحقق أدبية خطاب الرحلة، فانتهوا إلى ضم سرود كثيرة إلى مجال الرحلات الأدبية، على الرغم من أنّها ليست رحلات واقعية ولم يتحقق فيها شرط السفر، كما أخرجوا من دائرة النوع كلّ الرحلات التي تستغرق في الوصف الجغرافي والتاريخي والسرد الأسطوري ولم تتمكن من صوغ خطاب أدبي للرحلة، إنّ شرط الأدبية مهم لحسم مسألة تجنيس أدب الرحلة، ويتحقق ذلك بالاحتكام إلى شروط النوع وبنياته وأساليبه ومنظوراته السردية.

أقامت بعض الروايات الحديثة مادة محكيها على نسق رحلة الحج المـتَخيّلة، فهي، إذن رحلات ٌأدبية تحقق فيها شرط أدبية الخطاب، وضمن هذا النوع

تندرج رواية "لبيك حجُّ الفقراء" التي قام مؤلفها بتخييل قصة السفر إلى الحجّ، ووظّفها لسرد سيرة بطل الرواية، فكانت سيرة البطل مُشَاكَلَة سردية ذكية لسيرة المؤلف الذهنية. كما أنّ مسرحة حدث الرحلة إلى الحج، قد استوفى من جهة ثانية عمود الرحلة ومكوناته البنيوية، وهو ما يتراءى بوضوح بدءا من العتبات مرورا ببنيات الرحلة الثلاث؛ بنية الخروج وبنية السفر وبنية الوصول.

تجاوز عنوان الرواية الدلالة الأصلية للفظة "لبيك" حين ركّب عليها السارد عبارة "حجّ الفقراء"، وبذلك لم تعد الكلمة موقوفة على الحجّ، بوصفه رحلة تعبديّة محدّدة في الزمان والمكان، بل انفتحت على دلالات إضافية وامتلأت سيميائيا، لتدلّ على كلّ حركة بناء وإصلاح يستبطن رؤية جديدة إلى العالم .

كانت بنية الخروج، بمثابة تحفيز استصرافي يسبق الرحلة ويدل عليها قبل حدوثها ،وشملت علامات الخروج وأسبابه وشروطه وأعرافه، في حين اقترنت بنية الوصول بانتقال الحاج من وضعية تخييل الصور الذهنية عن المكان المقدّس، إلى وضعية الاقتراب والمعاينة، غير أنّ بينة الوصول ومثلها بنية العودة قد تمّ إضمارهما بحذف ضمني في الرواية، وهذا يعني أنّ الرواية قد تصرّفت في نسق الرحلة الدائري، حين لم تعد إلى بدايتها، مثلما هو شأن كلّ رحلة حج حقيقية، وبذلك أخذ الحجّ في الرواية بعده الرمزي، إنّه ليس مجرد نُسكٍ، بل هو رؤية جديدة إلى العالم، تقطع صلتها بالماضي وتتطلّع إلى تغيير الواقع، وهذا وسم جديد جعل من رواية "لبيك حج الفقراء"،رواية أطروحة اتخذت من رحلة الحج المتُخيَّلة، ذريعة لبسط القول في قضايا اجتماعية وإيديولوجية وحضارية ،تنبثق جميعها من السيرة الذهنية للمؤلف.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1- مالك بن نبي، لبيك حج الفقراء ، ترجمة زيدان خوليف، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

2- مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 1984م.

المراجع:

3- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن إبراهيم) (ت 614 هـ)، تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت لبنان، ط1، 1987 م.

4- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي) (ت614 هـ)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف ب (رحلة ابن جبير)، لجنة تحقيق التراث بدار ومكتبة الهلال، دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان.

5- حليفي (شعيب)، الرحلة في الأدب العربي (التجنس- آليات الكتابة- خطاب المتخيل)، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2006م.

6- ابن حمادوش (عبد الرزاق الجزائري) (ت1197هـ)، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحسب والحال،تحقيق أبو القاسم سعد الله،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1983م.

7- زكي (محمد حسن)، الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 1981م.

8- الزركلي (خير الدين) (ت 1396هـ)، ما رأيت وما سمعت، المطبعة العربية ومكتبتها، مصر، د.ط، 1923م.

9- زيادة (نقولا)، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، د.ط، 1987م.

10- ضيف (شوقي)، الرحلات (فنون الأدب العربي، القصص)، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1956م.

11- العراقي (أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين) (ت806هـ)، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"، ضمن كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2005 م.

12- ابن عمار (أبو العباس سيدي أحمد بن عمار الجزائري) (ت1205هـ؟)، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة الجزائر، 1906 م.

13- قباني (رنا)، أساطير أوروبا عن الشرق- لفّق تسد- ترجمة صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط3، 1993م.

14- هيكل (محمد حسين)، في منزل الوحي، دار المعارف، مصر، ط8، 1986 م.

15- يقطين (سعيد)، السرد العربي - مفاهيم وتجليات- رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.

المعاجم:

16- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، المجلد 5، دار المعارف، القاهرة، مصر، د. ط، 1981م.

17- Gustave vapereau, Dictionnaire universel des littératures, paris, librairie Hachette, 1876.

18- وهبه (مجدي) وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

المجلات:

19- فهيم (حسين محمد)، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، يونيو 1989 م، العدد 138.

الهوامش:

[1]- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب،دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط2 ،1983م، ص6.

[2] - Gustave vapereau ,Dictionnaire universel des littératures, paris, librairie Hachette,1876, p68.

[3]- مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص17.

[4]- سعيد يقطين،السرد العربي- مفاهيم وتجليات- رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص201.

[5]- رنا قباني، أساطير أوروبا عن الشرق - لفّق تسد- ترجمة صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط3، 1993م، ص13.

[6]- شوقي ضيف، الرحلات (فنون الأدب العربي، القصص)، دار المعارف، القاهرة، 1956م، ط4، ص9.

[7]- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (ت1197هـ)، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1983م، ص19.

[8]- نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، دط،1987 م،ص16

[9]- زكي محمد حسن،الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، دط، 1981م، ص7.

[10]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، يونيو 1989م، العدد 138، ص 80.

[11]- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (614هـ)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ (رحلة ابن جبير)، لجنة تحقيق التراث بدار ومكتبة الهلال، دار ومكتبة الهلال،بيروت لبنان، د.ت، ص49-50.

[12]- محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن بطوطة (614هـ)، تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم. بيروت لبنان، ط1، 1987 م، ص21- وص 32 .

[13]- خير الدين الزركلي (ت 1396هـ)، ما رأيت وما سمعت، المطبعة العربية ومكتبتها، مصر،1923م، ص 43 وما بعدها.

[14]- أبو العباس سيدي أحمد بن عمار الجزائري (ت1205هـ)، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب مطبعة -أبو العباس، مطبعة فونتانة الجزائر، 1906م، ص 3-4.

[15]- محمد حسين هيكل،في منزل الوحي ، دار المعارف، مصر ،ط8 ، 1986م ،ص 23 .

[16]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس- آليات الكتابة- خطاب المتخيل)، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2006م، ص53.

[17]- مالك بن نبي، لبيك حج الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، مقدمة المترجم، ص21.

[18]- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، المجلد 5، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981م، د ط، ص3980-3981، مادة (ل ب ب).

[19]- مالك بن نبي، لبيك حج الفقراء، ص 29 .

[20]- المصدر نفسه،ص28- 29 .

[21]- المصدر نفسه،ص 40 .

[22]- المصدر نفسه،ص74-75.

[23]- المصدر نفسه، ص 38-39.

[24]- أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت806هـ)، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"، ضمن كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،.بيروت ، ط1، 2005م، ص 720-721.

[25]- مالك بن نبي، لبيك حج الفقراء، ص 69.

[26]- المصدر نفسه، ص64.

[27]- المصدر نفسه، ص71-72.

[28]- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، المجلد 3، 2024 م، مادة (س ف ر).
[29]- المرجع نفسه، المجلد الثاني، ص779، مادة (ح ج ج).
[30]- مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص88.
[31]- المصدر نفسه، ص92.
[32]- المصدر نفسه، ص93.
[33]- المصدر نفسه، ص 155 .
[34]- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 1984م، ص 176.
[35]- نتبيّن بعض ملامح هذه السمة العاطفية في الصفحات 54 .64 وغيرها من الرواية.
[36]- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ص 137.
[37]- المرجع نفسه ، ص87 .
[38]- المرجع نفسه، ص291.
[39]- المرجع نفسه، ص 89.
[40]- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ص288.